النكبة بين التعليم والتأريخ

تحويل النكبة إلى فعل مستقبلي

أمل قطاوي

استهلُّ مداخلتي بكلمات مقتبسة لشاعرنا العظيم محمود درويش.

«كان هذا المكان كبيراً عليّ حين كنتُ صغيراً عليه، كان مَعْلماً ومعلّماً، فمنه أخذتني الحياة إلى أسئلتي الأولى، وإلى امتحان حريتي الأول، ومنه ذهبتُ إلى قصائدي الأولى التي أخذتني وما زالت إلى غربة لا شفاء منها مهما اطمأنّ الشعر إلى قدرته على تثبيت المكان في اللغة».

من هنا ومن مسؤوليتنا وانتمائنا ورغبة في استكمال الهوية وفي مواجهة تشظيها، جاء هذا المشروع: مشروع يتحدث عن النكبة وحكاية الذاكرة: ذاكرة لا انفصال لها عن أماكنها وعن النكبة، لا على اعتبارها تقويماً سنوياً، بل حكاية الجد التي تحمل في تكرارها حكاية تاريخ وأمانة مستقبل، حكاية بناء هوية خاصة، لأنها شرط الذاكرة، ذاكرة تقوم على تعرية الظلم وتسليط الضوء على محاولة الطمس، فهي أداة مقاومة وسؤال الحرية ورغبتها المتكرر.

ولكنها ليست الحكاية الرسمية فحسب، بل غير الرسمية أيضاً، بما فيها (المفتاح، الصعلوك، وحتى اللهجة)، التي من خلالها تصان أماكن الذاكرة من أي شكل من أشكال التدمير الحسي والمعنوي، وهي بذلك تستدعي الآخر المقيت، وتدحر بل تزلزل أسطورته القائمة على شعب بلا أرض وأرض بلا شعب.

من دورنا كفاعلين، وأيماناً منا بأن الذاكرة لن تتآكل عبر الزمان كما

راهن العدو على ذلك، قمت وزميلتي باسمة بـ«قراءة النكبة في ذاكرة المهجرين»، وتحويلها إلى مساق تعليمي تعلمي تفاعلي، بالتعاون مع الباحث مالك الريماوي، وكان مشروعنا يحمل عنوان «إعادة تعليم التاريخ»، ليكنّ تعليمه من القاع إلى القمة، بجمع شهادات لمهجرين من «دير ياسين، اللد، عنابة، العباسية»، وكانت هذه الشهادات مهمة تعليمية للطالبات، وعملية مستمرة في البحث والتساؤل ومساقاً لنا (للمعلمات)، ولكي لا تكون هذه الذاكرة (الشهادات الشفوية) هي ما يحمله الأجداد للأحفاد من مسؤولية فحسب، بل إنتاج لصوتهم الخاص، وتحويلها إلى غاية صنع تاريخهم، بما يخدم الحكاية ويحولها من رؤيا إلى فصل. فـ«التاريخ لا يملك أي قوة بحد ذاته، التاريخ لا يتحكم بنا، وإنما التاريخ من صنع أيدينا، لذلك علينا أن نأخذ أقدارنا بأيدينا، علينا أن لا نسلم بالأمر الواقع، وعلينا أن لا تستسلم للحياة التي تطوح بنا، علينا أن نكون فاعلين في التاريخ، وكي نكون كذلك، علينا أن نتعامل مع التاريخ بشكل ناقد، نستطيع أن نكون شركاء فاعلين في صنع التاريخ الذي نعيشه فقط، عندما نتعامل بشكل ناقد مع حياتنا اليومية». [1]

وطور المساق وطبق على مدار عامين، كل منا في مدرستها، وحمل هذا المساق تعليم اللغة داخل التاريخ كونهما (اللغة والتاريخ) يشكلان هوية الفرد الفكرية. «هناك علاقة أكيدة بين الفكر واللغة كتعبير عن فكر الفكر نفسه وسيرورته». [2]

والمشروع (قراءة النكبة في ذاكرة المهجرين) جاء في إطار تربوي، ليتيح للطالبات إعادة قراءة هذه الذاكرة وإنتاجها في سياقات فاعلة، ضمن سلسلة من نشاطات (مهام) كتابية ودرامية.

وقد مرّ هذا المشروع الذي أنتج التجربة بمراحل عدة، سأعطي ومضة سريعة عنها.

المرحلة الأولى:

(قراءة في ذاكرة المهجرين)

تمهيد لهذا النشاط:

1. نشاط إحمائي: جو تعيش فيه الطالبات، جو نفسي مضطرب مشابه للهجرة.
2. حانت لحظة الهروب، أهم الأشياء الثمينة (العزيزة) التي تأخذها معها الطالبات (من وجهة نظرهن).
3. رسم المكان الآمن التي ستلجأ إليه الطالبات.

الهدف من هذا النشاط: إزاحة المغلوط وتنقية الشوائب لأسباب التهجير.

المرحلة الثانية:

(استماع الطالبات إلى الشهادات الشفوية من المهجرين)

1. رسم المكان (القرية، المدنية) كما وصفها المهجر.
2. عمل سكيتش مسرحي عن (القرية، المدنية)، ولقد حرصنا على استخدام لهجة المهجر في هذا العمل ترسيخاً لتراث لنا، ورغبة في التواصل مع هؤلاء في قراهم ومدنهم، فاللغة تورث كما الأرض.

المرحلة الثالثة:

استكمالاً لزعزعة أسطورة الآخر. تم عرض فيلم «عبيد الذاكرة»، ويوضح الفيلم الكيفية التي يحرص الآخر على تربية أبنائه لتحويل الأسطورة إلى واقع.

وضمن جو معاش مشحون بالتفاعلات والتناقضات، ولكي تؤدي الكتابة وظيفتها الإبداعية والتقريرية والوظيفية والتوثيقية والتاريخية، وخروجاً على المعهود للكتابة في المدرسة، طلبنا من الطالبات أن يكتبن عن المكان وواقعية الوجود من وجهة نظر (الأنا – الآخر).

وهنا قد أتيح للطالبات الدفاع عن الهوية وتحقيقها بما يتناسب مع رؤيتهن للمستقبل؛ أي تحقيق الذات من خلال وعيهن كأفراد لذواتهن المستقلة، ولكنها مرتبطة بمسار الجماعة في الانتماء في محيط إنساني.

المرحلة الرابعة:

(نشاط درامي) ما يعرف بالدراما بـ «عباءة الخبير»، حيث تلعب الطالبات دور الخبراء في شركة دعاية وإعلان، مطلوب منهن تصميم كُتيب يحمل الشعار واسم الشركة، ثم المضمون الذي يحوي الصورة والكلمة (دعم حق كل طرف في المكان). [3]

هذا المساق قد أتاح لنا فرصة التأمل المعرفي والتطبيقي لكيفية المزاوجة بين التاريخ واللغة والدراما، وجعلنا نستمع إلى صوت الطالبات الخاص، وفتح التعليم على التغيير، وإعادة بنائه باعتباره فعل الحياة وأداتها في السياق السياسي والاجتماعي والمعرفي.

ووضعت الطالبات في مواجهة تحديات في الاستكشاف والتأمل، وإعادة التأويل والإنتاج، وإتاحة الفرصة لهن للنهل من مصادر معرفية متعددة. لتعيد بناء ذواتهن عبر الفعل الذي يخدم الحياة، والانفتاح على المعرفة والمنتوج الشعبي، من خلال الوعي بالتغيير لإحداث التغيير، وفي جو معاش وحي، وليس مفروضاً عليهن، من خلال التواصل مع ذاكرة الأجداد وكيفية توظيفها في مهارات عديدة (كتابية، درامية)، وإنتاج كتب بالكلمة والصورة، والتعرف على الآخر عبر (مشاهدة الفيلم) بوجهه المزيف وفكرة الماحق.

فهذا المساق أحدث فينا وفي طالباتنا انزياحاً فكرياً وعاطفياً ومهنياً، ونتيجة لذلك، وإيماناً منا بأن هذا ما هو إلا صراع من أجل الحرية ومن أجل الارتقاء بالوجود الإنساني، وتعميق هذا الوجود فـ«الحرية ليست مطمحاً يعيش خارج الإنسان، أو فكرة تتحول إلى أسطورة، وإنما هي ضرورة لا غنى عنها من أجل اكتمال إنسانية الإنسان».

فكانت ولادة جديدة لهذه التجربة. ولكنها أيضاً قائمة على الذاكرة: ذاكرة محملة بـ «الألم وتأثيم الذات، إلى ذاكرة محملة بالانبعاث

والتجديد، إلى شقائق نعمان ولدت من رحم المعاناة».

مرت هذه التجربة بخطوات عدة:

أولاً. طلبتُ من طالباتي جمع شهادات للمهجرين.

ثانياً. دارت مناقشة معهن، ثم طلبت منهن العودة مرة أخرى للاستماع إلى هذه الشهادات واختيار محور كمشروع لإتمامه (مجموعة من خمس طالبات).

أهم هذه المحاور:

1. الأعراس في قرى المهجرين ومدنهم.
2. بناء قرية (بيت اكسا) بناءً على سماعها من المهجر.
3. رسم خارطة التهجير.
4. رسم رحلة اللجوء بناءً على سماعها من المهجر.

وقد مرت الطالبات بخبرات ومعارف عديدة، جمعت التراث، واللغة، والتاريخ، والجغرافيا، والفلكلور.

وكان لهذا العمل أن يتوج بفيلم وثائقي (يتحدث عن رؤى لهذا الجيل، ويؤسس لوعي مغاير، ويصوغ الرؤيا الحديثة في لحظة المخاض التاريخي العسير، ولكن هذا العمل لم يتم مع طالباتي لعدم حصولي على تصريح حال دون إتمام هذا الجزء).

فانخرطت مع زميلتي باسمة في عمل هذا الفيلم مع طالباتها، ورافقتها في هذا المشروع خطوة بخطوة.

كم كان هذا العمل مع طالباتها جميلاً جداً، أتاح لي الفرصة في التعامل مع طالبات لم أعرفهن، ولكن سرعان ما تمّ الانسجام، وهذا جعلني أشعر بأنني معلمتهن، وأحسست أن طالباتي وكل الطالبات أياً كنّ، من حقهن الانتفاع من معرفتي، واكتساب خبرتي في هذا الحقل، لكن ما زال الألم يعتصرني لأنني كنت أرغب في إتمام مشروعي مع طالباتي اللواتي أقدرهن وأقدر جهودهن.

وسأترك الفرصة لزميلتي للحديث وتوضيح ما أضافت لي ولها التجربة في العمل ضمن فريق واحد.

أمل قطاوي
مدرسة راهبات الوردية

الهوامش

[1] فاريري، باولو (2005). **التربية للمقهورين والطريق للتحرر**، إعداد وتحرير: رباح حلبي، ط1، (د.م. ن): معهد الدراسات- مدرسة السلام.

[2] المصدر السابق.

[3] لمعرفة المزيد، يمكن الرجوع إلى مجلة **رؤى تربوية** عدد 27.